

المصطفى

الجزء الثاني من المجلد الثامن عشر بعد المئة

٧ جادى الثاني سنة ١٣٧٠

١٣٧٠

فيلسوف والالم

لقد كثر جميل صليبا

﴿ نجد في تصور الفلاسفة وفيلسوف المصورين (تبيين) صورة ذات قسمين ، يمثل أحدهما بدءاً من النساء في أوضاع مختلفة ، اختلطت أطفالهن ، فبدت عليهن علامات الحزن والضيق والبأس ، ويمثل الثاني عدداً من النعاج في أوضاع موازية لأوضاع النساء ، اختلطت خرافها فظهرت عليها دلائل الألم والهم والغم . وفي كل قسم من هذين القسمين معالم خفية ورموز لحيمة . إذا تأملنا هذه الرموز وهذه الاشارات وجدنا تحت كل صورة الساتية صورة حيوانية متشابهة لها ، ورأينا الحيوان والانسان يتشابهان في الاحساس بالألم ويختلفان في التصبر عنه .

إن هذه الصورة الرمزية تروحي بكثير من المعاني ، وتغير إلى كثير من الآراء الفلسفية لعمى تلك الآراء التي أو الألم ظاهرة طبيعية مقارنة لوجود الانسان والحيوان ، وهي تدل تالياً على أن شدة الشعور المدركة عند الحيوان تزيد شعوره بالألم . فالحيوان لا يحس بالألم ، والنبات يحس بطرق خفية الاحساس به ، أما الحيوان فإن درجات شعوره بالألم متفاوتة ، فكما كان أرقى كان شعوره بالألم أشد ، وكما كان أدنى كان شعوره بالألم أخف . وأما الانسان فهو أكثر الحيوانات شعوراً بالألم فهو مدركة العقلية ، وهو فرضنا أن هناك عالماً آخر فوق عالم الانسان له نصيب من المعقول ، ونطه في الوجود شبيه بالخط الذي نحن

فيه سيجن شعوره بالألم أشد من شعور الإنسان به . فكأن الألم في شعوره حاداً ،
وأيضا في عقله ، وكان العلم سبب من أسباب الشقاء .

ثم إن سورة (تيسين) هذه ترمز أيضاً إلى مدعب الفيلسوف الذي يفتخر بكونه
صاحباً بولد الحزن والألم والشقاء ، والجهل بولد انقضاء الرضى عن نفسه أو قلة
ألم هذه السورة الدنية دون أن تتساءل : ما هي أسباب الألم ، وما هي أسباب الرضى عن
الإنسان أكثر مما يتألم الحيوان . ما هي علاقة الألم بالعلم ، وهل يزيد الألم بالعلم
والانقضاء . ثم إذا كان العلم يشقى فهل من الخير لنا أن نعلم ، أم نحن ما كنا نحس . بأن نحس
في الجهل . وإذا لنفعل الثقات على التوهم . ثم كيف السبيل إلى حياضه كالتوهم من الألم ، وهل
يستطيع الإنسان أن يتقده نفسه من برائن العقاب . ما هو الخير وما هو الشقاء وما هي
شروط السعادة ؟

هذه أسئلة طالما ردها الفلاسفة ، وحاولوا أن يجدهوا لها حللاً ، وهي غير مقصورة
عليهم وحدهم ، وإنما هي أسئلة بردها كل الساق في كثير من مواضع العلم ، فإذا اشتد الرضى
عليه مسخ من أماني قلبه لمساذا أتألم . وإذا ذرقت حبيبه وشعر بالذل والضعف بعده ود
لو يفارق الحياة . وإذا مات له مزرع ضاقت الدنيا في وجهه . فالتقى بعدي الحلاوة ، والشيخ
يبسح حكته يشابهه ، والتمتير يصرخ يارباة حتى منو ، تحمك الطرس في وتضع العرش على رأسي
والذي يقول لقد أوفر المال بألم حياتي فأصعدني في سبائي وشيخو حتى حتى جاني عن صحتي
جناية الشرك على التورد . ويكفي أن يدخل الإنسان مستشفى من المستشفيات ، أو مراحاً من
مراحى ، أو تجرة ، أو سجناً من السجون المظلمة ، أو بيتاً من بيوت القضاة المصممين ، أو
جماراً من أعمار الكبيرة التي سخرت الإنسان لآلة يشاهد أرواها السذاب وصرفاً
من الألم والشقاء . فالإنسان يسعى جهده طيلة حياته مخفوقاً بالمناهب والمصائب ، وطاية
ما يحصل عليه بعد هذا العناء التذوول أن يحافظ على حياته الثمينة ، بينا الحرف ما تزل أمام عينيه في
كل لحظة وفي كل فعل . أفلا يدفعه هذا كله إلى الثورة والتمرد ، أفلا يدفعه إلى البحث عن
أسباب ألمه . لماذا يتألم الإنسان ، ولماذا يسقى ويشقى ، لماذا لا يتفكر في حياته لئلا كلها
وسدات كلها ، أجل ، لماذا ، لماذا - هذه تلة ثورية لا يفرحها إلا الإنسان ، هذه سرعة
سليوية لا تنبث إلا من أماني القلب . أليس الإنسان شيئاً (بآرديب) انتائه التي
ذكرته الأساطير ، يشقى في طريق الحياة الوحش . حتى يلتقي في أحد مستجمراتها بثلاثة
(الاسفكس) العجيب الذي يطلب منه الجواب عن لغز الشتروم ؟ فإذا حل هذا
الغز نجح من الموت ، وإذا عجز عن حله وقع في الهاوية .

سراً قد يجرى وأمره غير متضمن قول على كسنا لتحق اصعاد
 لتترك إن من مؤلف شعراء، إنهم لم يكتفوا بالتلويح بل ولتطلب من الفلاسفة أن
 يوضحوا لنا هذا السر، إن الفلاسفة كما يقولون هي العلم بمخالفات الأشياء، فإن الالتماس في
 نظر الفلاسفة، ما هي أسبابه وما هي غاية ؟

٣ - الالتماس في نظر الفلاسفة

إن مسألة الالتماس في نظر الفلاسفة وجيهة : الأول هو تعليل الالتماس ، والثاني هو التعرف
 عليه ، ومعنى تعليل الالتماس إتيان حقيقته وفهم أسبابه ، ومعرفة غايته . ومضى التعرف من
 الالتماس انكشف عن طريقة عملية للخروج منه ، ومعرفة الصلوك التي يجب علينا أن نتبعها به
 عند مواجهتنا به أو شعورنا به .

إن كل مسألة من هاتين المسألتين متصلة بالأخرى ، لأنك لا تستطيع أن تهدي إلى
 طريق التعرف من الالتماس إلا إذا عرفت أسبابه ، كما أنك لا تستطيع أن تعرف كيف يخرج
 منه إلا إذا عرفت حقيقة سلوك الانسان ، وهل هو ميسر أو غير . فإذا تبين لك أن
 الانسان ميسر حكمت جازماً بأنه لا حيلة له في الثورة على الالتماس ، وإن شاء أو أكره ، مدفوع
 بحكم الاضطرار إلى مصيره المحترم ، وإذا تبين لك أن لارادة الانسان تأثيراً في توجيه
 سلوكه حكمت جازماً أيضاً بأن في وسعه أن يتجنب بعض أسباب التلويح . فمن الضروري
 إذن أن نبحث عن أسباب الالتماس وشروطه قبل أن نبحث في إمكان التعرف منه والتغلب عليه
 إن أقدم المذاهب الفلسفية التي نجد فيها حلاً لمشكلة الالتماس هي الايتورية والواقعية .
 فقد حاول أصحاب هذين المذاهبين أن يمثلا لنا حدوث الالتماس ، ويبيحوا لنا غايته ويرشدونا
 إلى طريق التخلص منه .

١ - في الايتورية - ماذا يقول الايتوريون ؟ يقولون إن الهدى بحدها غاية
 الانسان ، وهي وحده مصدر الخير ، أما الالتماس فهو الشر ، والتلويح كل الحكم في نظر
 (ايتوروس) من ممكن آلامه بتذكر تلك الحاجات ، وتأمل سائر المناسبات ، فيرفض
 لذة طاعة لغيره لتستمتع لما أكبر منها ، ويشعر أنها طاعة لغيره ، إذ أكبر منه . إن
 الالتماس ينشأ عن كثرة الحاجات غير للانسان إذ أن يقلل من حاجاته ، ويؤخرها عن أفكاره .
 كل ما يبعث في الالتماس ، وعلى قدر ما تتجنب هذه الأفكار المتناقضة والمخالفة للأحكام
 المتداخلة تكون سعادته . وسبيل ذلك بساطة العيش والاعتدال ، وإبهاج النفس ، وهدوء
 أفعال ، والسيطرة الشاملة على الرغبات حتى لا تدفع بنا في طريق الضلال . وأشيراً ما كان

ايقوروس يصف نفس الحكيم هذوه البحر او السياه الضاميه ، بر الحاشيه من الحاشيه وهو الذي يكتفي بالنظير من الطير والماء ، ويصبح «عندما أنت من البحر» ، والآن انظر بالضمير ، ويحدد اللذة في احتقار اللذة ، ويثالم من غير أن يثلم - فلا يحسب ان اللذة هي إلا في زيادة آلامه وأحزانه . وهذا كله حق ، لانه اذا انتزع من الضمير قد يثير في الضمير من الآلام من الآلام المظيفة ، ولكن كيف يستطيع الانسان ان يتغلب على الآلام هذه ؟ كيف يستطيع التغلب على الموت ؟ يقول (ايتوروس) : « لا تخافوا من الموت ، فانكم ان كنتم تموتوا به ابداً ، فادمتهم في قيد الحياة ، لا تستقربوا بالموت ، ورحمتي قد تم الحياتة قد تم الحياتة . وفي هذا يقول كما تقول مسكات كاذبة لتنتابا وعارساتا ، أو انك من الفيلسوفين من هذه المسكات . ان تسمي لا تكن كمكون البحر ، ولا تصنعوا كمنفسه انسان ، انما هي هيبسة بحر يتلاطم الامواج ، أو بساطة شهبدة بالغيوم . وهذه المسكات ان يقروية لا تزيدني إلا قلقاً واضطراباً .

٦ - بحر الرواقية كح - ثم ماذا يقول الرواقيون ؟ انهم يقولون عليك ان تقوم أولاً بواجبك لان قيامك بالواجب هو وحده في تناول نفسك وهو الذي يحرر نفسك من الألم ، واياك ان تصكر في غير الواجب ، في يلمس نفسك دائماً ، وانخضع القانون العام الذي يسير الكائنات كلها بدون حب . نعم بدون حب . لماذا ؟ - لاننا اجزاء مجزئة في دولاب الكون . قد تكون الحوادث التي تمر بنا شراً ، وقد تكون خيراً ، ولكن هذا الامر لا يهمنا ابداً ، لان المهم قبل كل شيء ان يكون في الوجود نظام ، وان كان نظام الوجود يقتضي ان يتالم بعض الناس ، ويخرج بعضهم الآخر ، فما على الانسان إلا ان يتقبل ذلك كله بنفس راضية مرفضية . فقد كان (ابيكتيت) عبداً رقيقاً وكان سيخس يظنه كثيراً . فلما لوى له رجله قال له (ابيكتيت) في عدوه : « متكسر رجلي » ، فلما تكسرت رجله قال في غير جرح : « قلت لك انك متكسر في رجلي » . وهذا المثال يبين على ان السعادة في نظر الرواقيين انما تعتمد على قوة المقاومة ، وما يحدث في الحياة من آلام ليس حزيناً تمرين وانما هي فعل به ال ضبط النفس وكبح جماحها . ثم بنا الآلام ، ولتفسر حياتنا كما تفسر اصبح الصخر الصخرة الصماء الواسبة على الشاطئ ، ان سعادتنا هي ان نتحمل بنجاح الكون وان نتحمل أننا جزء من أجزاءه المركزية بعضها في بعض ، وان نتقبل بهذوه وثبات ونجده ما أنت أبنا الالام لا تقة خرماء .

والسكندر ألا ترى سمي أبنا القاريء الكرميم أن في هذا الشبان ، وفي هذا الشبان

ولكن هل استطاع العلماء أن يحتضروا الحوادث التي هي في الحقيقة أسمى من أي حادثة أخرى في التاريخ البشري إلى اعتمادها لتأريخ تقدمهم من عصر إلى عصر؟ إنهم لم يفعلوا ذلك، بل إنهم لم يهتموا من النعمور بالأمم. وقد يكونوا قد فعلوا ذلك لو أنهم كانوا يهتمون بالأمم، أو بتوهم بقائه وهو رائل بعد وبعد في القصور والبيوت والحدائق والنقود بمسيرة لطيفة. قال: «عرفت فتاة ساذجة جديرة بالاعتناء في إحدى القرى، وأنها تزف كل يوم إلى حليبها الحليبي فطبخته رقائقاً من حبوب القمح والقمح الأبيض، وأكلهاها التفتي متحملاً مستقيمة في قفازات فضفاضة من حبوب القمح والقمح الأبيض. فإذا جاء الماء ولم يأخذ الحليب المتضخم فخرها في ذلك، ولم تأخذ الحليب المتضخم في ذلك في اليوم الثاني عند منع نساء قريتها من الحليب من أن يتركه في ذلك كذلك ترح في الصباح وتخرج في الماء - أرندي توب، كامل ومثلها - في واجهة باكية، فتنتقل من بيتين ستروم، إلى غلثك محقق، حتى أرويتها في البيت نفسه هذه الفتاة المسكين، هي نفسي في كل عصر من العصور، هي من حينها إلى العصور الحالية، وتنتظر دائماً محقق مثلها الأعلى لقد مررت على أبتشرا في بيتين وهي تقول سيحي، الخطيب غداً، وكل جيل من الأجيال يرندي ثوبه لمجيد في ذلك هذا الخطيب المحذور لم يجيء حتى الآن.

لنفرض الآن أن التطور ظهر سائراً قديماً إلى الأمام حتى وصل إلى نهايته، ونسعدون أن البشرية استطاعت بعد جهود طويلة أن تتفاهت على جميع العقائد، وأن تكونت بحرية الاستمتاع بذلك الحياة فهي يفتح الأبدان بدأت، وهن يكون في أسباب الحياة، ووسائل الصحة والرفاهية، إن الأهل يفتح على من ذلك، إنه ينظر دائماً إلى فوق، وكلما يفتح خرجوا من التقدم تفتح إلى حياته الواقعية. وهذا الميل إلى تحسين الطبيعة، هذا التوسع في العقائد، هذا النزوع إلى ما وراء الواقع، لا يفتح عند هذه، ولو أودى الإنسان في هذا وقال كل ما يشئ، وانقلبت أخلاقه كعب إلى ما يشئ، فإني أرى في هذه الصحة والجمال والقوة، وتوسع حدودها دائماً من أسمى تلك التي كانت في هذه الحالة ثانية أرقى منها. وما دام الإنسان لم يترك يد هذه المذلة في أيديها بالحرمان، وأي ألم هو أعظم من ألم الحرمان، لا يراي سقاء هو أكبر من سقاء الخبز والتعود، إنه ألم أسمى، لا بل هو ألم منظم، وهذا الواقع لا يكونني بالصحة والسر متخيل إذا أصبح واقعيًا لم يكتف الألمان به، بل طمحن دائماً بغيره.

الأخرى مستحيل ، وهكذا تدركك . ان حصة كنهه الجنة الوضعية التي ليس وراءها شيء هي من حيث أودية الدموع ، وكهف من كهوف الخلود واليأس . وأي معنى للحياة في هذه الدنيا التي لا يعرف في حياتها مثل أعلى . إن مصير الانسان فيها مظلّم . لا بل ان حياته كلها تلك الدمية المعلقة بين السماء والأرض . شهوة وترقص ، وتخط ، وتقاتل وتموت حتى يدركها الموت فتوارى في النكد فلا ي شيء هذا التخط ، ولا ي شيء و هذا الكفاح والتمراك . ثم لأي شيء ينزل الإنسان على وجه الأرض هذه المأساة التي لا نهاية لصلوها إلا ان كل فلسفة تريد أن توضح لنا أسباب الألم دون أن تبين لنا غاية هي فلسفة الفسفة ، لا بل هي يرق قلب وروم يخل . فالثورة على الألم توم ، وتغدير الآلام بجميع المستنكات الطبية كخداع وعجز ، واحتقار الحياة ، والأعراض عنها والوحد فيها كآلية ودياء . والاعتماد على الألم وحده لتحرير الإنسان من الألم قويه .

١ - - - - - المشاعرون ي - - - - - فأنت ترى أن هذه المذاهب الفلسفية لم تبص في حقيقة الأمر . بل أنتج من ذلك أنه يجب حل الانسان أن يذعن للشقاء ، وأن يقطع كل رجاء ؟ ذلك ما فعله بعض المشاعرين الذين زعموا أن الألم أحاس الحياة . فما قاله الفيلسوف الألماني (شوبنهاور) ان الإرادة هي الحقيقة النهائية لكل شيء ، وهي مصير البشر . فالعلم بشر لأن الإرادة تتسلع دائماً إلى أعلى تاتقرب ، فإذا تحققت لنا رغبة من الرغبات وجدنا ان جانبها عشرات الرغبات قد أعوزها التحقق . والعالم شر أيضاً لأن في كل فرد منا حوصاً من الألم يستحيل أن يظل طرفاً ، إنما لا يرحم من صدورنا حياة من أجل أن نحل مكانه هناك آخر . والألم هو الدافع الأساسي لكل فعل . وهو وحده إيجابياً ، أما اللذة فهي سلبية لأنها لا تحصل للنفس إلا عند خروجها من الألم .

واللذة شر أيضاً لأن إرضاء الحاجات لا يتكافأ يسمح للإنسان بشيء من الراحة حتى يشعر بالملل . وكل ما علا للإنسان في سلم الارتفاع ازداد ما يئبه من ألم . وفي ازداد حسرة في المعرفة ازداد شدة آلامه . وفيه شدة آلامه فأنال لا يتقطع ، فأينما توجهت ألفتك في الأذى ، ثملاً ومداخلة وعذاباً . إنك لو أخذت أكبر المتفائلين إلى سلاجحة الأرض ، وغرفت في الراحة ، وأوكلت الصيد ومراديت الفقراء ، وساحت الحرب فلم هذا المتفائل السامع أن يندم لأن الأ أرضاً مبتلة بالدموع . فنحن نساء إذا احتزلنا اليأس ، نساء في حالكنا . وما الحياة إلا مأساة ميكية وسلهات فاجحة . يقول شوبنهاور : يدعى الألم فيقول فنن أو مهنماً آخر ، فنظل منذ تلك الساعة نذهب إلى مهنمة كل يوم فننقصي به عشر ساعات أو أكثر تؤدي اتانها عملاً آلياً لا يتغير .

وأنت مضطر الى هذا العمل لكي تشتري به أنفسك التي ترضي به ارادة الحياة . فليس التساؤل إذن أمام هذه المصائب إلا سخرية من سخريات الدهر .

إن الزمان يقربنا بالآمال ولا يبعث لنا عهداً ، ويلوح لنا بالسعادة ثم يبتعدنا الى سواوي النقاء . وما أشبه الحياة كما يقول (شوبنهاور) بمبلغ من المال تدفعه في حصار حتماً تقوداً صغيرة ، فلا تلم به إلا بعد الانتهاء من دفعه . أما التقود التي تدفعها فهي أيام حياتك وأما الأيسان الذي يعطى لك في النهاية فهو الموت .

إن هذه الآراء التي جاء بها (شوبنهاور) قريبة من آراء الشهباء المتشاكسين . فهي ترجح أسباب الألم الى ارادة الحياة ، أي الى تلك العاطلة المياد التي لا تعرف التيقن . ولو كانت هذه الارادة حائلة لادركت أن عملها لا يعطي ثقتها .

ولكن كيف السبيل الى الخلاص من الألم ، وكيف السبيل الى الخروج منه . إن المتشاكسين الراسخين في تساؤهم لا يضمنون هذا السؤال ، لأن في مجرد وضعه مخالفة لأصول مذهبهم . فكيف تقول إن الوجود شر لا حياة لنا في اجتنابه ، ثم تفكر به ذلك في إمكان الخلاص منه . إن ارادة الخلاص من الألم تدل على الإيمان بالتساؤل . وكل فيلسوف متعاشم يرحب في القضاء من الألم يناقض نفسه بنفسه . ثم لماذا هذا التشاكس من الحياة . أليس في التساؤل كثير من الأناية . إن تسجيل شرور العالم في دفتر الإنسانية لا يستلزم الوقوف منها موقفاً سلبياً لأن هذا الموقف السلي لا يقع إلا في زيادة نظير المحقق بالإنسان . لماذا تلتقي تيمة ما يحس به من سخطة ومن غضب على الكون نفسه ؟ إننا نستطيع أن نبتسم ضد مواجهة كل خطر ، ولنتطبيع أن نغلق قلوبنا على عند اشتداد كل ممة . إن هذا الرجاء هو خير النخر في كل شدة ، لا بل هو خير من لنا على تحمل مشاق الحياة . ولو أنمنا النظر في ألوان الحياة لوجدناها أقل ظلمة منا وصحتها به (شوبنهاور) إن أسماء الأجسام يستعملون بكثير من الئذات المسماية . كما أن أسماء العقول يدركون كثيراً من الئذات العقلية . ففي ضياء الشمس ، ورائحة الزهر ، وفقريد الطير ومشاهد الطبيعة تفحات من السعادة ، كما أن في تهم الحقيقة وادراك الجمال وقامل نظير دلائل على الله . إنه من حق الرئي كما يقول (كارليل) أن نلحن انشمير لأننا لا نتمل لنا السجائر . ومع ذلك فنلعبها نعلبها لنا لو أرتينا الألم وأندكاه . وكل من أمر من أمور الحياة يمكن أن يكون ساراً وبؤساً حلواً ومرراً سماً . فإذا كنا سعداء وجدنا كل شيء جميلاً ، وإذا كنا حزاني وجدنا كل شيء قبيحاً .

و - (البوديون) وما يقال على مذهب شوينهور يقال أيضاً على مذهب البوذيين. لقد زعم هؤلاء المشائرون أن هناك قوة عمياء تسير حياة الأفراد دون أن تفكر في مصيرهم وقدرتهم. حقيقة الحياة هي الشر والنساء، وأن الوجود هو الألم. ينظن الجاهل أن حروره حقيقي فيجعل ويسعى ويولد هذا السعي في نفسه رغبة وألماً. لذلك كان خير سبيل للتخلص في نظر البوذيين أن يميت الإنسان ما يشعر به من رغبة وأن يحطم وجوده الفردي بقوله (بودا): ألم أيها الإنسان إن الميلاد والشيخوخة والمرض والموت كلها آلام. وسبيل التخلص من الألم أن تميت حياتك الفردية، وتحدد بالوجود الكلي.

ولكن هل في وسع الإنسان أن يميت حياته الفردية، هل في وسعه أن ينسى ذاته، ويضام منزه جفونه. إن كثيرين من الذين أفضت عليهم مصائب الحياة يمالجون همومهم بالنوم أنهم يريدون أن يناموا لينسوا كل شيء، يريدون أن يناموا طويلاً حتى لا يروا شيئاً، ولا يسموا شيئاً ولا يحسوا بشيء. هذه الأمنية هي أمنية الكثيرين من الحزائي الجبناء. ولكن لماذا يريد البائس أن ينام؟ انه يريد أن ينام ليسكن آلامه بأحلامه. النوم هدية يلعبها اليأس ليستعيد قواه فاذا استيقظ من نومه عاد الى متابعة آلامه ورغباته. إن البوذي يريد أن يفرق في بحر (النيرفانا) الهادئ، ولكن موقفه من الحياة ليس على التمتع بموقفاً سلبياً خاصاً لأنه كلما أفاق من نومه، ورغب في العودة الى (النيرفانا) باحثاً عن السعادة الوهمية التي يعللها نفسه.

٣ - غاية الألم

فأنت ترى أن جميع المذاهب التي عرضنا لذكرها هنا لا تخلف في بعض نواحيها من النقص. إن التخلص من الألم لا يكون باقتناص الذات، لأن اللذة ليست غاية الحياة. ونحن من جعل غايته من الحياة طلب اللذة عاش في قلق دائم وهمم مقيم. ثم أن التخلص من الألم لا يكون بالزهد في الحياة، ولا بالاعراض عن الدنيا، لأن هذا الاعراض عن الذات لا يدل إلا على السذاجة والعجز والكذب والتمويه. ثم إن العلم وحده لا يكفي لاسعاد الانسان، لأنه آلة قد تستعمل للشر كما تستعمل للخير، وأخيراً أن فلسفة النشاؤم لا تتبع إلا في زيادة الآمال وأوصافنا. إننا في حاجة إلى أن نرفع، إننا في حاجة إلى أن نتقاوم إننا في حاجة إلى المقينات ليرهبها قروانا. والناسق من فهم سر الحياة، وعلم أنهم سارح من الذات والآلام وخليط من الخير والشر، بل العاقل كل المعادين من علم أن الذات والآلام أمور اضافية، لا معنى لأحدها إلا إذا نسب إلى الآخر. فقد نجد الألم فيما يسر

غيرنا، وقد نجد الخير فيما يجد غيرنا شرًا. إن الذين يقولون إن الحياة خير كلها أو كذب من الذين يقولون أنها شر كلها. ولو كانت الحياة خيرًا خاليًا من الشر، أو شرًا خاليًا من الخير لما كانت واقعية. إن الحياة الواقعية لادة وشوطة، ولطيفة ونخيفة، حلوة ومريرة معًا. أنها تشبه كما يقول (الناطول فرانس) مهرجًا ارتدى ملابس كثيرة الألوان، فهذا يراها حراء، وذاك يراها زرقاء، ولو وضع كل إنسان نفسه في موضع الآخر لرأى اللون الذي يراه. إن ألوان الحياة كثيرة وهي لا تكذب متشائمًا، ولا متفائلًا. ولكن المهم في ذلك كله أن نسمح لجارنا بأن يكون سعيدًا عندما نكون حزائيًا.

قرأت مرة كتابًا صغيرًا يصف فيه صاحبه مدينة فاضلة لا يشمر أهلها بأية لذة ولا بأي ألم. فلما انتهيت من قرأته أحببت الحياة الواقعية، لأن فيها الماء ولذة، وبفساد وحب، وبأساء وأملًا، إن الحياة مع رجال يناضلون وينتصرون، ويكافحون ويقاومون أسعد من الحياة مع رجال لا حس لهم. ولو خلا الإنسان من الحس لأصبح كالخجر الأصم لا يتلذذ ولا يتألم. إن اللذة الحقيقية الكاملة هي أن تشعر بما يشربه غيرك فتحبه وتواسيه وتمزيقه. فكما أن الشجرة الطيبة إذا شق فخصها نثرت حولها رائحة طيبة، فكذلك الآلام الناس تفجر من نفوسنا ينابيع الرحمة والفضيلة. إن الذين يريدون أن يزولوا الشعور بالألم من نفوس الناس يعتبرون فهم كل شيء، لأنهم لا يستطيعون أن يزولوا الشعور بالألم، إلا إذا أزالوا معه الشعور باللذة.

فببيل الخلاص من الألم هو أن نحب الحياة ونعترف بقيمتها، وأن نتقبل ما هي ونعمل على اصلاحها، وأن نلتمس عند مراجعة كل مشكلة من مشكلاتها. إننا إذا وقفنا هذا الموقف الإيجابي من آلام الحياة خففنا كثيرًا من وطأتها. وفي أوقاتنا الخيرية ونشعورنا بالحرية والحب والسكان عرف لنا على ذلك. إنني أستطيع أن أتصور حالة بشرية يجد فيها الأطباء أدوية لجميع الأمراض ومسكنات لجميع الآلام، ووسائل صحية تطيل عمر الإنسان، وأستطيع أن أتصور أيضًا حالة اجتماعية يسودها العدل والانصاف، ويكافح فيها العمور والفقير والجهل، وتنظم فيها أمور الناس على مياديه التقدم والعدل والرحمة. فهذه أسئلة تخفف بلا ريب وطأة الآلام البشرية، ولكنها لا تستطيع أن تزيلها. والبوسيلة الوحيدة للتغلب على الآلام هي إرادة الإنسان، أي شعوره الداخلي بإمكان الخلاص وهزمه داخليًا.

إن كثيرين منا كما قلت يريدون أن يسكنوا الآلام بالنوم أو بالخدرات ، ولكن هذه الخطة السيئة لا تفيدهم شيئاً ، بل تزيد في آلامهم وهمومهم ، ولو واجهوا الآلام بنفس راقية وقريب مطعنة ، وملا واحياهم بالنشاط والعمل لوجدوا في ذلك خير جزاء لنفوسهم ولكنني أجمع الآن شكراً تدب لي قلوب التراء . أهم لا يزالون يقولون لماذا لا تكون الحياة لمدة كلها ، لماذا هذا الضمور بالآلام ألم يكن في وسع الله وهو الخبير الخلاق أن يخلق حياة خالية من الآلام . لماذا جعل الحياة تلبية الأضواء ، لماذا جعلها ناقصة وجعلنا فيها غرباء ، الجرباب على ذلك أن العالم لم يخلق للإنسان لتفاهي وحده ، بل خلق للإنسان ولقاية أمي من الإنسان . ولكن الإنسان التفاهي يريد بالرغم من تفاهي حدوده أن يحيط بالمكان والالتامية . إنه يتصور أن مكان وينظر إلى نفسه فيجدها ناقصة ، أنه يتطلع إلى الخير ، فينظر إلى الأشياء فيجدها محفورة بالشم ، ولولا هذا التطلع إلى الخير والتكامل لما كان الإنسان انساناً . ولو توهمنا أننا أدركنا ذلك كله لكننا كالمحقق المصابين بجنون النظام . إن توهمهم بأنهم قد أدركوا الكمال يذهبهم من العمل . إن شعورهم بأنهم قد بلغوا غاية الجهد يصددهم عن الجهد ، ويخرجهم من الوجود الحقيقي . إن الفعل هو شرط الوجود ، لا بل هو علة الحقيقية ، وهو مقرون بالانفعال أي بالذات والآلام . ولا يبالغ الكون غايته إلا إذا قام كل موجود بالفعل الخاص به . فالشمس تضيء ، والطائر يتردد ، والعمود ينشر الطيب ، والإنسان يبذل الجهد لا ليملك العالم ولكن ليملك نفسه ، وينقلب بحريته على ضرورات الطبيعة ، ويتهجر وبارادته من قيود الزمان والمكان .

هكذا يتطلع الإنسان هامة الحياة في صبر وتجهد ، هكذا يرتقي إلى اللامية في فرح ورجاء . هكذا يصبح الكون بالنسبة إليه معاملاً من معاميل الجمال . وفي هذا العمل من الجمال يظهر الإنسان شخصيته الفردية ، ويتحد بالوجود انكسالي ، ويضع بالمدل والرحمة والرأفة والحب . وإذا ما شعر الإنسان بالحب قلب لفته إلى شرب ، وأدرك أن في كل طرف انتصاراً على الشقاء . فإذا اردنا إذن أن نكون سعداء فلنخرج من قيود الحياة الحقيقية ، ولنحرق من الأتنية ، ولنؤمن بوحدة الوجود . ولتحقق لأنفسنا حياة مضمرة بالجهد والمقاومة ، أننا إذا فلتك ذلك أدركنا معنى الحب ، وفهمنا حقيقة الحياة ، وشعرنا بالثقة وتفوح من خلال الثقة ، وبالسعادة تفبجس من تفحات الصبر والرجاء .